النقد الأدبی فی العصر العباسی

محمدباقر الحسینی*

الملخص

کان العهد العباسی عهد عظمة الثقافة والحضارة الإسلامیة وازدهارهما حیث تم التصنیف فی مختلف العلوم المتداولة فی ذاک العهد وتمهدت أرضیة خصبة للعلم والأدب، وفی هذا الخضم اختص الأدب بسهم وافر من الاهتمام وترکت حرکة الترجمة تأثیرا غیر قابل للإنکار علی مجمل نشاط النقد الأدبی أسفر عنه تغییر نظریات نقاد الأدب إلی العالم الخارجی تغییرا جذریا یختلف عن سابقه من العهود، وفی هذا العهد سعی النقد الأدبی لیکون بعیدا عن تأثیر الاحساس العاطفی الذاتی معتمدا علی التحلیل والبرهان لذلک فقد ظهرت قواعد دقیقة ومنهجیة فی النقد؛ ونقد العصر العباسی یتشعب إلی ثلاثة اتجاهات: الأول، الاتجاه اللغوی والثانی، الاتجاه الذوقی والثالث، اتجاه العلماء مثل قدامة بن جعفر الذی تأثر إلی حد کبیر بالعلوم الیونانیة.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

الکلمات الدلیلیة: النقد الأدبی، العصر العباسی، الشعر، البلاغة.

*. أستاذ مشارک بجامعة فردوسی مشهد (دانشیار دانشگاه فردوسی مشهد).

تاریخ الوصول: ۱۳۸۸/۳/۲۰هـ . ش تاریخ القبول: ۱۳۸۸/۵/۲۵هـ . ش

المقدمة

يعد العهد العباسى أكثر العهود ازدهارا للعلم والأدب والفن فهو عصر رقى الحضارة الإسلامية ونضوج الثقافة، فقد صنفت كتب فى مختلف العلوم المتداولة مما أتاح المجال لتنامى العلم والأدب وكانت بغداد مركزا للخلافة ولاتخاذ القرارات السياسية لدنيا الإسلام، وقد قصدها العديد من كل صوب وحدب بغية نيل السلطة والثروة، الأمر الذى أدى إلى توثيق العلاقة بين الثقافات والحضارات المختلفة. كما قصدها أيضا أهل العلم والأدب، وكان اهتمام الخلفاء بهم قد لعب دورا مهما فى تقدم العلم والثقافة الإسلامية حيث أثار الرغبة لجمع الأشعار وحفظها وروايتها. وقد صنفت الكثير من الكتب فى العلوم الانسانية والدينية والتاريخية والجغرافية وترجمت من سائر اللغات إلى العربية ومع تلاقح الثقافات الإيرانية والهندية واليونانية والرومية واختلاطها بالثقافة العربية تبلور مجتمع أكثر رقيا مما عليه فى العصر الأموى. وظهرت ثلة من العلماء فى الفلسفة، والطبيعيات، والرياضيات، والعلم، والنقد، وروايات الشعر، وظهرت علوم مثل الهندسة، والرسم، والموسيقى، والأدب.

وفى هذا المجال اختص الأدب والنقد بسهم وافر من الاهتمام واتخذ التأليف الأدبى اتجاها علميا وفلسفيا حيث بذلت العناية بسيرة الشعراء والكتاب ونقد آثارهم ومن ثم راج النقد الأدبى فى الشعر والنثر.وقد أبدى الخلفاء العباسيون حتى عهد المتوكل رغبة ملحة بالشعر والأدب.وقيل إن مجلس هارون الرشيد كان يعج بالشعر ونقده، وكان للمأمون ذوق وقريحة لطيفة فى فهم الشعر ومعرفته وقد ورد أنه كان لهارون والمأمون بعض الآراء النقدية فى الشعر وكان هارون يعقد الكثير من المجالس ويقيم مناظرات مع الأدباء والرواة وكان لأبى عبيدة والأصمعى حضور فعال فيها.

لاشک أن لحركة الترجمة تأثير لاينكر على حركة النقد الأدبى، تمكنت من تغيير نظريات نقاد الأدب حيال العالم الخارجى تغييرا جذريا يختلف عن سابقه من العهود وهذا الأمر خلق أسلوبا جديدا فى نقد الآثار الأدبية والعلمية، وأول من كانت له مساهمات فى الترجمة هو خالد بين يزيد حفيد معاوية، وفى العصر العباسى تقدمت

نهضة الترجمة أشواطا بعيدة بسبب وقوع العديد من الكتب اليونانية والإيرانية والفارسية فى أيدى العرب.

إن النقد الأدبى فن يمكن من خلاله مناقشة وتقييم الآثار والكتابات الأدبية والوقوف على نقاط الضعف فيها من خلال نظرة النقاد الفاحصة والدقيقة وعرضها على الرأى العام، لذلك كلما ازدادت معلومات الناقد الاجتماعية، والعلمية، والثقافية، والأدبية كلما كانت أبحاثه أكثر قيمة ودقة. ومقبولة عند شرائح المجتمع كافة، ولما كان النقد الأدبى فى العصر العباسى استمرارا للنقد فى العصر الأموى والجاهلى فمن اللازم قبل التطرق إلى النقد فى العصر العباسى أن نعالج النقد فى العصر الجاهلى والأموى بإيجاز.

كان الأدب فى العصر الجاهلى منتشرا بين عامة الناس متزامنا بظهور نوع من النقد ينسجم مع الطبيعة الجاهلية وكان يصدر غالبا على أساس الفطرة دون أن يتبع قانونا أو قاعدة معينة، وكان النقد فى ذلك العصر يبتنى على أساس أن شعر كل شاعر يجب أن يبحث بمعزل عن شخصية الشاعر ومكانته وحتى بمعزل عن سائر أشعاره، وقد انصب اهتمام النقاد فى تلك العهود على قوة الشعر أو ضعفه؟ وهل إن الألفاظ سلسة أو يشوبها تعقيد وغموض؟ وهل إن القافية مطابقة للسنن الشعرية أو لا؟ ويبذل الناقد الأدبى جهده لعقد مقارنة بين الشاعر ومن عاصره من سائر الشعراء مع سرد خصوصياته، وهذا النوع من النقد يفتقر إلى استدلال متين.

ومع إطلالة العهد الإسلامى وحتى العهد الأموى تغير وجه النقد ويعود السبب إلى وجود القرآن والأحاديث النبوية والقيم الجديدة التى كانت مهجورة فى العهد الجاهلى أو لم تكن أصلا.كما تركت البيئة الاجتماعية للعرب ـ لاسيما فى زمن الخليفة الثانى ودخول شعوب أخرى إلى الإسلام ـ بصماتها على ثقافتهم، وقد أدت هذه المسألة إلى تحول فى آفاق تفكير العرب والالتفات نحو مسائل لم يكن ثمة مجال للبحث فيها؛ لذلك فالناقد العربى لم يكتف بالمسائل العادية كما عليه الحال عند الناقد فى العصر الجاهلى بل اهتم بمزايا القالب والمعنى وقد عززت هذه الحركة وجود مراكز أدبية فى مكة ودمشق ومنذ ذاك الحين انصرف اهتمام الناقد إلى الموسيقى والنغمة فى الوزن

والألفاظ إضافة إلى المعانى ومناسبتها مع الألفاظ، وقام النقاد بتقسيم شعراء ذلک العهد إلى طبقات وبينوا ميزة كل طبقة.

وعلى أية حال فقد اعتمد النقد الأدبى على أسس ذوقية تحكى عن لطافة وقريحة النقاد وذوقهم، وفى الشام التى كانت مركز الخلافة الأموية اتجه الشعر والأدب اتجاها سياسيا واعتمد النقد على ذلک اللون أى فى باب تقييم مدائح الشعراء وفرز الحسن والردئ نظرا للسياسة التى اتخذتها سلطة بنى أمية لاستقطاب الملأ واستدعاء الشعراء بغية مدحهم وسرد مناقبهم.

و خط النقد الأدبى خطوات واسعة فى العصر العباسى وسعى إلى الابتعاد عن العصبيات والعواطف والاعتماد على التحليل والبرهان، فاتخذ النقد لنفسه قواعد دقيقة ومنظمة و انشعب إلى ثلاثة اتجاهات الأول: الاتجاه اللغوى ويعد أسلوبا قديما إذ كان اتباعه يتطرقون إلى التراكيب اللغوية والبحث عن جذور الألفاظ وروايات الشعر وشرح المعانى قبل كل شىء، ونادرا ما يقومون بتحليل عناصر الشعر، والاتجاه الآخر لأدباء نظير القاضى الجرجانى، وهؤلاء صوبوا سهام بحثهم نحو الأدب الحديث إلى جانب تثمينهم للأدب القديم وقاموا بنقد عناصره، وهذا النقد يستمد أصوله من ذوق الناقد.

والاتجاه الثالث تبناه جماعة نظير قدامة بن جعفر الذى تأثر بالعلوم اليونانية واعتمد فى نقده على علم البلاغة والمنطق وكان يقيس عليهما الآثار الأدبية وسنعرج الآن على سرد أسماء جماعة من نقاد ذلک العصر.

أبو عمرو بن العلاء ويعد من أقدمهم (انظر: الأنبارى، لاتا: ١٥؛ وزيدان، لاتا، ج٢: ١١٤) وكان أحد القراء السبعة حيث يعتقد أن نقد الشعر أصعب من نظمه وقيل: إنه جاء أحد الشعراء إلى خلف الأحمر وألقى عليه شعرا لبيت فيه، فأنشد الشاعر الدوبيتى، فقال له خلف: «دع قولى، اخدر الشاه فوالله لئن ظفرت بهذا البيت لتجعله بحرا.» (البجاوى، ١٩٦٥م: ٥٥٧)

وكان الأصمعى من النقاد وكان له ذوق سليم ولهجة صريحة، قيل: «إن رجلا من بغداد أنشد شعرا رديئا أمامه فبكى الأصمعى، قيل له: «مم بكاؤک؟» فقال: «إن المرء لا

قدر له فی الغربة فلو کنت فی البصرة لما تجرأ هذا الشخص علی التفوّه بمثل هذا الشعر ولما سکت.» (المصدر السابق: ۵۶۱)

وبالطبع فإن نقد هؤلاء الرواة والأدباء یقتصر علی موارد جزئیة وقد یحکمون بأفضلیة الشعر أو ضعته لرد بیت أو قبوله، وإضافة إلی ذلک فإنهم لایعیرون أهمیة لمقالة المحدثین ما عدا أشعار القدماء، کما هو الحال لدی عمرو بن العلاء (المصدر السابق: ۱۵) حیث لاینشد إلا شعر الأقدمین وکان یقول بشأن الشعراء الجدد: «کل ما فی أشعارهم من حسن وملاحة فمن المتقدمین وکل ما فیه من سوء وقبح فمنهم.» جدیر بالذکر أن معظم نقاد ذلک العصر لم تکن لدیهم تصانیف بل کانت کلماتهم مبعثرة فی تضاعیف کتب الأدب، ولاتخلو بعض الروایات من اتهامهم بالزیغ والغلو.

ومن جملة الکتب المهمة فی تاریخ النقد الأدبی، ولعلها من أقدم الکتب التی ظلت ماثلة علی جبین الدهر کتاب طبقات الشعراء تألیف أبی عبد الله محمد بن سلام الجمحی (المصدر السابق: ۹۳ـ۹۸) وکان من أهل البصرة وتتلمذ علی کبار أدباء ورواة عصره مثل: حماد، وخلف الأحمر، وأبی عبیدة، والأصمعی، ولایتبع هذا الکتاب نظما وترتیبا.

أما الفوائد النقدیة التی ذکرها فکانت جدیرة بالاهتمام ومن بینها العنایة التی بذلها المؤلف بنقد النصوص وأوعز إلی هذه النکتة بدقة وصراحة وهی أن ما روی من أشعار العصر الجاهلی والإسلامی لیست علی صواب برمتها بل إن بعضها منحول (الجمحی، لاتا:۴۶) وحتی إن محمد بن إسحاق قد نسب أشعار منحولة إلی صحابة رسول الله (ص) وهذا الأمر أدی إلی فساد وضیاع کثیر من الأشعار، کما راح الجمحی فی کتابه إلی تصنیف شعراء العصر الجاهلی والإسلامی إلی طبقات وأسهب الحدیث عن کل طبقة مع بیان مقتطفات من أقوالهم. (انظر زیدان، لاتا، ج۲: ۱۲۳)

ومن النقاد المعروفین أیضا ابن قتیبة، فکتابه الشعر والشعراء یشبه إلی حد کبیر کتاب طبقات الشعراء وهو أول من تجرأ علی نقد الشعر والنثر (المصدر السابق، ج ۲: ۱۶۷) وکتابه هذا یضم شرحا وافیا لسیرة الشعراء الذین طار صیتهم فی الآفاق واستند إلی أشعارهم فی کتب النحو، وهؤلاء الشعراء هم من العصر الجاهلی والإسلامی حتی زمن المؤلف

مع ذكر أشعارهم، إلى جانب آراءه النقدية حيال تلك الأشعار.

وكان لابن قتيبة كتب متعددة فی النحو، والفقه، والأدب، واللغة، ويعد من طلائع عصره، من جملتها كتاب عيون الأخبار، وكتاب المعارف، وأدب الكاتب، والإمامة، والسياسة، والشراب، والأشربة، وكتاب التسوية، بين العرب والعجم وتفضيل العرب و تأويل مختلف الحديث وكتاب مشكل القرآن والمثبتة من الحديث والقرآن والمسائل والجوابات وكتاب اللبأ واللبن. (المصدر السابق، ج۲: ۱۹۷)

ومن مزايا ابن قتيبة إنه لاينظر إلى المتقدمين من الشعراء نظرة إجلال وإكبار ولا إلى المتأخرين نظرة احتقار وازدراء، وهذه النظرة هی عين الإنصاف (ضيف، لاتا، ج۲: ۶۱۲) ويقول فی هذا الصدد: «ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلاله لتقدمه وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت حظه ووفرت عليه حقه.» (ابن قتيبة، ۱۹۴۶م: ۱۰؛ المقدسی، ۱۹۳۶م: ۴)

ويقول فی موضع آخر: «فإنی رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه فی متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فی زمانه أو أنه رأی قائله» (نفس المصدر:۱۰)

وعلى الرغم من أن ابن قتيبة يحصر الشعر فی شعر القدماء، إلا أنه لايجحف حق المتأخرين لكن ينبغی القول إنه لم يجز العدول عن سنن وقواعد القدماء ذلک إنه يقول بصراحة لا مؤاربة فيها: «ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فی هذه الأقسام فيقف على منزل عامر أو يبكی عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافی» (نفس المصدر:۱۲). وظاهر هذا الكلام أنه انقلب على حياده وتفكيره الحر الذی كان يدعيه فی النصوص الآنفة الذكر.

ومن العوامل المهمة فی العصر العباسی التی كان لها تأثير كبير على انتشار وتكامل النقد الأدبی هو ظهور علم الكلام ذلک أنه وسع من آفاق التفكير بشأن الأدب، هذا ويجب أن لانغفل عن دور القرآن فهو دعامة أساسية لعلم الكلام، وتعد المسائل القرآنية من عمدة المباحث التی استأثرت باهتمام المتكلمين.

كما أن الجاحظ قد انتفع من العلوم البلاغية وعلم الكلام وله فی هذا الصدد كلام حيث اعتبر فيه أن المعيار فی نقد النظم والنثر هو البلاغة وبهذا النحو حصلت مزاوجة بين النقد الأدبی والقواعد البلاغية. (مقدمة لدراسة النقد فی الأدب العربی، ۱۹۵۸م: ۶) ويعد كتاب البيان والتبيين من الأركان المهمة للنقد والبلاغة.

والحقيقة التی لابد أن تقال هی إن الجاحظ فی كتابه البيان والتبيين سعی إلی جمع أكبر عدد ممكن من آراء ونظريات علماء عصره حول بلاغة الإنشاء والخطابة. (نفس المصدر: ۷) وهذا لايعنی أنه لم يكن يمتلک رؤية فی هذا الشأن بل قد طرح نظرية خاصة به عبر بيان الأقيسة النقدية. وبصورة عامة فإن نقد الجاحظ علی الرغم من وقوع التشتت والتناقض فيه إلا أنه يبتنی علی الفكر والمعرفة.

ويعتقد الجاحظ أن المعنی مهما كان عميقا فما لم ينصهر فی لفظ لايترک التأثير المطلوب فی النصوص، وهذا الكلام جدير بالعناية والتأمل حيث ينم عن رغبته فی تهذيب الألفاظ وتنقيحها (الجاحظ، ۱۹۴۸م، ج۱: ۷۶) والبيان حسب مدعاه هو عبارة عن دلالة اللفظ علی معنی خفی، والبتة كلما كانت الدلالة أوضح والإشارة إلی المعنی أدق وإيجازه أكثر كلما كان إظهار المعنی أجلی، ومن هنا فالمعانی مطوية فی أعماق النفس حتی تظهرها التراكيب اللفظية، وبالطبع كلما كان التفهيم فی حد البلاغة كلما صيغ الكلام بنحو أحسن وهو فی البيان والتبيين يقول: «الكلام البليغ هو الموافق لأسلوب الفصحاء من هنا كان التعليم والتأدب ضروريا للكاتب.» (نفس المصدر، ج۱: ۸۸)

ومع ترجمة كتاب أرسطو فی باب الخطابة والشعر طلع عنصر جديد علی الساحة النقدية لم يكن معروفا من قبل وهو العنصر اليونانی، وهذا العنصر الجديد وإن لم يكن مجهولا لدی أهل المنطق والفلسفة إلا أن أغلب الشعراء والأدباء لم يطلعوا عليه حتی لفت أنظارهم إليه قدامة بن جعفر (المتوفی ۴۳۷ ه) (انظر زيدان، لاتا، ج۲: ۲۰۰؛ الحموی، لاتا، ج ۱۷: ۱۲). وقيل إن قدامة كان من طلائع علم المنطق والفلسفة. (انظر: طبارة، ۱۹۶۹م: ۴۷ـ۷۰) حتی نسب إليه كتاب فی فن الجدل وكتاب آخر فی السياسة، ويعتقد بعض أهل البحث والتحقيق أن قدامة فی كتابه نقد الشعر لم يتأثر بأفكار أرسطو كل التأثر، ولكن

يذكر أحيانا فی بعض أبحاثه كلمات أرسطو ويدعمها كأنه فی الواقع لا همّ له إلا تطبيق آراء أرسطو على الشعر والأدب العربی، فعندما قام بتعريف الشعر بأنه قول موزون ومقفی يدل على معنى وحصر الشعر فی أربعة أمور وهی اللفظة، والوزن، والقافية، والمعنى. (نفس المصدر: ۱۷۲) قال: «وثمة شعر حسن وقبيح وكل معنى من الممكن أن يأتی فی الشعر وأكد علس أن الشاعر قد ينشد شعرا ثم ينقضه فی شعر آخر أو يمدح أحدا ثم يذمه فی شعر آخر وهذا الأمر لايقدح بالشاعر، ونظير هذا الكلام قاله أرسطو فی فن الشعر وهذا التوافق والتشابه ينم عن اهتمام قدامة بأفكار أرسطو، والحقيقة هی أن قدامة قد تكللت جهوده بالنجاح من الناحية الفنية والعلمية و قد تمكن ـ دون شک ـ من إخضاع النقد إلى قواعد منطقية واختيار معايير وضوابط له، مما أدى إلى اعتلاء آثاره النقدية غبار الجفاف نظرا لاقتصاره على سرد القواعد والأصول والمبادئ النقدية، وجدير بالذكر أن القواعد التی ذكرها لاتنسجم مع الذوق والطبع العربی ولعل هذه النكتة هی التی حدت بأهل النظر بعده إلى الإحجام عن تطبيق وتلفيق النقد العربی مع اليونانی، ومهما يكن من أمر فقد حازت أبحاث قدامة المدونة فی كتابه نقد الشعر على اهتمام السكاكی والخطيب فی تدوين علم البلاغة فيما بعد، وأسفرت جهود قدامة عن جلب أنظار جماعة إلى هذا الموضوع ومن بينهم الآمدی صاحب كتاب الموازنة والقاضی الجرجانی صاحب كتاب الوساطة والمرزبانی مؤلف المواشح وأبو هلال العسكری صاحب الصناعتين وابن رشيق صاحب العمدة وابن سنان الخفاجی صاحب سر الفصاحة وعبد القاهر الجرجانی صاحب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز. (المصدر السابق: ۴۳۳)

وساهم أبو القاسم حسن بن بشر الآمدی (المتوفی ۳۷۱ ه) (انظر: ريحانة الأدب، ج۱: ۲۸) فی نقد شعر أبی تمام والبحتری وله كتاب تحت عنوان الموازنة بين الطائيين حيث قام بدراسة مقارنة بينهما، وهذا الكتاب جذاب وممتع نظرا لاشتماله على نكات وملاحظات نقدية، وكان الآمدی معاصرا لابن النديم وقد ذكرت سيرته فی الفهرست ومعجم الأدباء وثمة كتاب تحت عنوان «تبيين غلط قدامة بن جعفر فی كتاب نقد الشعر» حيث نسبه إليه ياقوت فی معجم الأدباء.

إن ظهور المتنبی علی الساحة الأدبیة وإتیانه بمضامین جدیدة وأسالیب حدیثة فی الشعر أدی إلی احتدام الجدل بشأنه بین نقاد الأدب، وکل جماعة سعت إلی دعم وجهات نظرها بشواهد وأدلة ومن بین هؤلاء القاضی الجرجانی والصاحب بن عباد، ولما دوّن الصاحب بن عباد رسالته التی تحمل عنوان الکشف عن مساوئ شعر المتنبی کتب القاضی الجرجانی کتاب الوساطة بین المتنبی وخصومه وکان قضاؤه موضوعیا ومنصفا، أظهر الجرجانی فی هذا الکتاب براعة فائقة علی النقد، بحیث یعد کتابه ـ بلا ریب ـ حجة بالغة فی باب القضاء بین المتنبی والصاحب بن عباد.

ومن جملة النقاد فی هذا الباب أبو الفرج الاصفهانی مؤلف الأغانی وهذا الکتاب فی الواقع دائرة معارف للشعر والأدب یضم کافة الأخبار والأشعار والحکایات ویقع الکتاب فی عشرین مجلدا حیث أشار فیه ـ إلی جانب بیان أخبار وأحوال الشعراء ـ إلی ملاحظات نقدیة جذابة وبدیعة لاسیما فی باب السرقات الأدبیة وانتسابها وأیضا نقد الأسانید من نصوص الروایات وکان ذو قریحة نقدیة خاصة، وتحکی هذه الملاحظات والنقود عن سعة اطلاعه وقوة حافظته.

وثمة أدیب آخر وهو أبو نصر الثعالبی. (انظر: زیدان، لاتا، ج۲: ۳۲۰) وکان شاعرا نقادا وأدیبا وله تصانیف کثیرة منها یتیمة الدهر فی أخبار وأشعار المعاصرین له، وقد ضمن کتابه ملاحظات نقدیة فی باب الشعراء هذه الملاحظات کانت ذات طابع أخلاقی ودینی أو تتعلق باستعمال الألفاظ وکلما صادف شعرا مشکوکا فی نسبته یعلن ذلک بصراحة أو إیماء مشفوعا بذکر مرجعه. (الثعالبی النیسابوری، ۱۹۵۶م، ج۱: ۱۴۴)

وثمة أثر نقدی آخر مهم فی هذا العصر هو کتاب رسالة الغفران لأبی العلاء المعری وکان شاعرا وحکیما معروفا له تصانیف عدیدة، وموضوع الکتاب المذکور نقدی وفکاهی حافل بالأفکار والأشعار والأخبار المتداولة بین أهل الأدب وهذا النقد اللطیف طوی فی حکایة خیالیة وبدیعة ورسالة الغفران رغم وجود ألفاظ غریبة وغیر مأنوسة ووجود نثر مکلف. (المعری، لاتا: ۱۳۱) حافلة بفوائد أدبیة ونقدیة مهمة ومن هذا الجانب تحوی علی أهمیة ومیزة خاصة لاسیما وإنه یذکر فی مطاوی تلک الأبحاث نکات

مهمة ودقيقة حول الصرف، والنحو، والبلاغة، واللغة كما تبرز روح الفكاهة عنده، وهذه الحالة أضفت على كتابته، لونا خاصا فعندما واجه ابن قارح أحد شيوخ الجن ويدعى حيتعور سأله عن أشعار نسبها المرزبانی وآخرون إلى الجن فأجاب شيخ الجن بدعابة وغمز: «لاتركن إلى هذه المقولات فما يعلمه البشر من الشعر فاق ما يعلموه من الهيئة والهندسة.» (المصدر نفسه: ۲۹۱)

ولابأس هنا من تناول أدب الأندلس على سبيل الإيجاز، إذ من جملة الأسماء التی لمعت فی هذا الصدد ابن عبد ربه القرطبی مؤلف كتاب العقد الفريد. وهذا الكتاب هو مجموعة من الأخبار والأشعار والنوادر حيث نقلها المؤلف من الكتب والأمالی ورسائل الأدباء المتقدمين كابن قتيبة، والجاحظ، والمبرد، والجمحی، وآخرين. وربما كان الهدف الذی يتعقبه من وراء ذلک إشاعة الأدب والمعارف العربية الرائجة بين أهل المشرق لدى أهل الأندلس والمغرب. ويقع الكتاب فی خمسة وعشرين بابا ويطلق على كل بابين بالجوهرة، وكان هدف ابن عبد ربه من تأليف العقد الفريد هدفا أدبيا لا علميا وعلى حد تعبير محمد سعيد الريان نادرة لأجل حلاوة موضوعه لا صواب نظره.وكان أسلوب ابن عبد ربه بعيدا عن الركاكة ومتينا ويعلو هامته السجع دون التزام واعتدال، ولما يصل لموضوع يرسل كلاما طبيعيا دون تزيين ويأتی بجمل طوال أو قصار حسب اقتضاء الحال.

ومن جملة أدباء الأندلس أبو علی القالی حيث قضی معظم حياته فی الأندلس وتوفی فيها عام ۳۵۸ هـ. وكان من علماء النحو، واللغة وله تصانيف متعددة أهمها الأمالی وهو حاوی على غرائب اللغة والأدب ونوع من النقد يتراءی فی المواضع المختلفة من كتابه. كما أن له كتاب النوادر وعلى حد تعبير ابن خلدون هو أحد الأساطين الأربعة للأدب العربی وفی مستوى أدب الكاتب لابن قتيبة والكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ويقول ابن خلدون فی هذا الصدد: «وسمعنا من شيوخنا فی مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهی أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبی علی القالی البغدادی وما

سوی هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها.» (مقدمة لدراسة النقد فی الأدب العربی، ۱۹۵۸م: ۱۳۹)

ابن رشیق القیروانی (زیدان ، لاتا، ج۲ : ۳۳۴) أدیب آخر من أدباء المغرب وکان شاعرا وأدیبا ولغویا من إثاره العمدة فی صناعة الشعر ونقده وقراضة الذهب فی نقد أشعار العرب وهو کنظیره العمدة له أهمیة بالغة باعتباره مشحونا بأصوله النقدیة ویقول ابن خلدون فی هذا الباب: «لم یکتب مثله احد قبله ولابعده.» (مقدمة لدراسة النقد فی الأدب العربی، لاتا: ۱۷۶)

ومن آراءه الملازمة بین اللفظ والمعنی ویقول: «اللفظ جسم وروحه المعنی وارتباطه به کارتباط الروح بالجسم یضعف بضعفه ویقوی بقوته». (ابن رشیق، لاتا: ۸۰)

ویعتقد بضرورة بذل العنایة باللفظ والمعنی للحصول علی جمال الأسلوب وکتاب ابن رشیق وإن لم یحتو علی مباحث جدیدة إلا أنه تلفیق فی الواقع بین آراء المتقدمین، أما فی حقل التألیف والتدوین فقد تمتع بذوق ودقة وسلیقة ورتب الموضوعات وآراء المتقدمین ترتیبا منطقیا دون تکرار ممل جعل الکتاب ممتعا وجذابا.

ومن الکتب المهمة فی هذا الباب ویعد أساسا لعلم البلاغة کتاب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز فالأول فی البیان والثانی فی المعانی، وهذان الکتابان من أکثر آثار عبد القاهر الجرجانی شهرة.

وینحصر نظره فی کتاب دلائل الإعجاز علی إثبات هذه النکتة وهی أن بلاغة القرآن معجزة رسول الله (ص) ولیس باستطاعة أحد تقلیده، إلا أنه مع هذا یطرح بحثا دقیقا وجامعا فی باب علم المعانی وتأتی أهمیة الکتاب من أن المباحث المتعلقة بعلم المعانی ذو عمق ودقة قل نظیرها فی سائر الکتب.

وجاء أسرار البلاغة لإثبات أن معیار الجودة والبلاغة فی الآثار الأدبیة وطرق بیان الشاعر والکاتب له تاثیر علی الذوق والقارئ، وثمة موضوعات فیه حول السرقات یمکن القول إن المؤلف قد أنکر أکثر أقسام السرقات زعما منه أن لکل شاعر أسلوبه الخاص فی بیان المعنی ولایمکن لشاعرین أن یتفقا بنحو کامل فی البیان والأسلوب.

(زرین کوب، ۱۳۵۴هـ . ش، ج۱ :۱۶۹)

ورغم أن موضوعات أسرار البلاغة حول الجناس، والسجع، والتمثيل، والاستعارة، والمجاز، والسرقات إلا أن هذه الموضوعات اكتسبت فی زحمة التحقيقات والأبحاث تنوعا وسعة وأحيانا تصنيفا قل نظيره حيث تبدو لدی القارئ فی الوهلة الأولی أنه يمضی فی تيه وضياع لكن ينتهی به المطاف إلی نظام خاص فی وادی التحقيق.ولاشک أن أسلوب تحليل المؤلف فی هذا الكتاب يتلخص فی السؤال والجواب، فهو يطرح الشبهات والمعضلات بداية ويستفسر عن سبل التخلص منها وأخيرا بعد تقصی المزيد من البحث ينتهی إلی الأجوبة الشافية.

ومن جملة الأدباء ضياء الدين بن الأثير (ابن الأثير، ضياء الدين، ۱۹۵۹م، ج۱:۳۰) وكان مؤلفا بارعا وشاعرا ماهرا ومن جملة تصانيفه فی النقد الأدبی كتاب المثل السائر فی أدب الكاتب والشاعر وقد ورد فی الكتاب نكات دقيقة لم يصل إليها المتقدمين من علماء البلاغة ويكرر المؤلف فيه الطعن بالنقاد وسائر الأدباء ويعد نفسه أفضل منهم ويعرج بعد عقد بحث مفصل فی كل مسالة من مسائل البلاغة والبديع، يعرج علی إثاره بمزيد من المدح والإعجاب.

ومن أهم المباحث المطروحة فيه مبحث السرقات الأدبية الذی جعله خاتمة للكتاب (نفس المصدر، ج۳: ۲۱۸ـ۲۹۲) إذ ينتقد المؤلف فيه كلمات من يقول: «ما ترک القدماء للمتأخرين شيئا»، ويقول: «لم يوصد باب الإبداع والابتكار مادامت الدنيا أما السرقة فتقع فی المعانی الإبداعية لا فی المعانی المشتركة التی لاتختص بأحد ولايمكن القول إن هذه المعانی اقتبسها المتأخرون من المتقدمين.» (نفس المصدر، ج۳: ۲۱۹)

المصادر والمراجع

ابن الأثير، ضياء الدين.۱۹۵۹م. *المثل السائر فی أدب الكاتب والشاعر*. الطبعة الأولی. مصر: مكتبة النهضة.

ابن خلدون، عبد الرحمن.۱۹۵۶م. *المقدمة*. بيروت: دار الكتاب اللبنانی.

ابن قتیبة. ۱۹۶۴م. *الشعر والشعراء*. بیروت: دار الثقافة.
الأزدی، الحسن بن رشیق. لاتا. *العمدة فی محاسن الشعر وآدابه*. لانا.
الأنباری، عبد الرحمن بن محمد. لاتا. *نزهة الألفباء فی طبقات الأدباء*. تحقیق محمد أبوالفضل إبراهیم. القاهرة: دار نهضة مصر.
البجاوی، علی محمد. ۱۹۶۵م. *الموشح للمرزبانی*. القاهرة: دار نهضة مصر.
الثعالبی النیسابوری. ۱۹۵۶م. *یتیمة الدهر فی محاسن أهل مصر*. تحقیق محمد محی الدین عبد الحمید. الطبعة الثانیة. القاهرة: مطبعة السعادة.
الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر. ۱۹۴۸م. *البیان والتبیین*. القاهرة: لانا.
الجرجانی، عبدالقاهر. ۱۳۶۱ش. *أسرار البلاغة*. جلیل تجلیل. طهران: لانا.
الجمحی، محمد بن سلام. لاتا. *طبقات فحول الشعراء*. محمود محمد شاکر. القاهرة: مطبعة المدنی.
الحموی، یاقوت. لاتا. *معجم الأدباء*. مصر: مکتبة عیسی الحلبی وشرکاء.
زرین کوب، عبد الحسین. ۱۳۵۴ ش. *نقد أدبی*. طهران: أمیرکبیر.
زیدان، جرجی. لاتا. *تاریخ آداب اللغة العربیة*. تعلیق شوقی ضیف. بیروت: دار الهلال.
ضیف، شوقی. لاتا. *العصر العباسی*. الطبعة الثانیة. مصر: دارالمعارف.
طبارة، بدوی. ۱۹۶۹م. *قدامة بن جعفر والنقد الأدبی*. الطبعة الثالثة. المطبعة الفنیة الحدیثة.
المعری، أبو العلاء. لاتا. *رسالة الغفران*. شرح بنت الشاطئ. الطبعة السادسة. مصر: دار المعارف.
المقدسی، أنیس. ۱۹۳۶م. *أمراء الشعر العربی فی العصر العباسی*. الطبعة الثانیة. لانا.
موسی باشا، عمر. ۱۹۸۰م. *محاضرات فی الأدب المملوکی والعثمانی*. دمشق: مطبعة الإحسان.